

دور الصحافة الوطنية في مجابهة سياسة المسخ الإستعمارية

1- مقاومة الإدماج والتجنيس:

دفاعا عن الهوية الوطنية بشقيها اللغوي والديني، ناهضت الصحافة الوطنية المخططات الإستعمارية الرامية إلى القضاء على كيان الأمة الجزائرية عن طريق الإدماج والتجنيس، على غرار ما فعلته صحافة عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال ثلاثينيات القرن الماضي، حيث احتوت على مقالات وكتابات هامة، دعا كتابها من خلالها الشعب الجزائري إلى ضرورة التمسك بالمقومات الأساسية للشخصية الوطنية، نذكر على سبيل المثال مقال بعنوان "فرنسا" لابن باديس سنة 1938 (ج1، م14)، نقتطف ما جاء فيه مايلي: «... ناهض الشهاب التجنيس والاندماج، وناضل عن الشخصية الإسلامية غير مبال بما يعترضه من المستعمرين آكلة لحوم الأمم، ولا من صراعاتهم من ضعاف النفوس، ولا من صنائعهم حزبي الذمم غلاة المستعمرين، حتى أصبحت الأمة اليوم وهي مجمعة بجميع طبقاتها على لزوم المحافظة على شخصيتها وعدم التنازل عن شيء منها ولو حرمت كل حق بيد الظلم والعدوان...»

كما نشر هذا الأخير فتوى تحت عنوان "التجنس والتوبة منه" في جريدة البصائر (العدد 95) الصادر بتاريخ 14 جانفي 1938، حرم فيها التجنيس واعتبر المجنسين مرتدين عن الإسلام، مما جاء فيها: «التجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع. والمتجنس بحكم القانون الفرنسي يجري بتجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام وتلك الجناية من شر الظلم وأقبح هو إثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنائته... و من تزوج بامرأة من جنسية غير إسلامية فقد ورط نسله في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية»

و بدوره المناضل أحمد توفيق المدني كتب في صحيفة الشهاب سنة 1930 تحت عنوان "بين الموت والحياة"، كشف من خلاله عن موقفه الراض للإدماج والتجنيس ومؤكدا على مآلها المحتمي إلى الفشل، بقوله: «... فسياسة التجنيس والاندماج أخفقت تماما وأفلست كل الإفلاس، وهكذا يخيب ويفلس كل أمر مخالف لسنن الطبيعة وقوانين الاجتماع، فلم يتجنس المتجنس إذا ويقدم على تضحية دينية وقومية؟ اللهم إذا كان يرى دينه منحطا فيريد ان يتبرأ منه

ويرى لغته ساقطة فيريد استبدالها بغيرها، ويرى أمتة ساقطة فيريد أن يقطع الصلة به وبينه، فهو يصبغ نفسه صبغا خشنا ويحشر نفسه في زمرة قوم ليس منهم وليسوا منهم ولا يغدو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأمثال هذا الرجل قليل في الجزائر والحمد لله».

كما استبسلت الصحافة اليقظانية في نضالها الإعلامي ضد سياسة فرنسا الإدماجية، وأبرزت مخاطرها على الشخصية الوطنية، من خلال مقالات عديدة نشرتها في هذا الصدد، خاصة الممضاة باسم الشيخ أبو اليقظان، أبان من خلالها هجومه الحاد على التجنيس والإندماج دفاعا عن الشخصية الوطنية.

2- كشف مخططات المنصرين والتشهير بها:

لم تكن الصحافة الوطنية غافلة عن نشاط الجمعيات التنصيرية في الجزائر خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات القرن 20م، بل تفتنت لدسائسها ومكائدها في استدراج الجزائريين لإدخالهم في الديانة النصرانية بعد تجريدتهم من عقيدتهم الإسلامية، وفضحت وشهرت بأساليبهم وإغراءاتهم كتقديم المساعدات الاجتماعية والتعليمية والصحية للفقراء والمساكين والأطفال الأيتام، وقد اضطلعت بهذا الدور الصحافة اليقظانية، من خلال نشرها لمقالات كثيرة حول هذا الموضوع، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "دسائس المبشرين في بلاد الإسلام" (جريدة وادي ميزاب العدد 57، سنة 1927)، "ماذا يريد المبشرين بالمسلمين" (جريدة الأمة، العدد 161، سنة 1938)، "مؤامرات المبشرين ضد شمس الإسلام" (وادي ميزاب، العدد 84، سنة 1928)، وهذا بهدف استنهاض الجزائريين من غفلتهم وتنبههم للخطر المحدق بعقيدتهم، و من ثمة توعيتهم بوجوب الدفاع عن الإسلام والتمسك به باعتباره مقوم أساسي للشخصية الوطنية.

شعر المنصرون بخطورة هذه الصحافة على نشاطهم، و عملوا بشتى الطرق لوأدها، و أقاموا تحالف استراتيجي مع الإدارة الإستعمارية للتضييق على النشاط الإعلامي لأبي اليقظان، وتعطيل جميع صحفه الصادرة خلال فترة(1926-1938)، و لم تسلم حتى مطبعته العربية مداهمة العدو لها، وتفتيشها بحثا عن كتابات الصحفي الفرقد(سليمان يحي بوجناح) الفاضحة لأعمال الجمعيات التنصيرية، كما تعرض منزل كل من أبي اليقظان بغرداية، والشاعر مفدي زكرياء ببني يزغن للتفتيش، و ذلك محاولة من المحتل إرهابهما نفسيا للحيلولة دون استمرارهما في نضالهما

الوطني التحرري، إلا أنه فشل في اعتقاده هذا، من خلال استماتة أبو اليقظان في جهاده الإعلامي دفاعا عن القضايا الوطنية إلى غاية اندلاع ثورة أول نوفمبر المباركة.

3- الدفاع عن الهوية الوطنية:

انبرت الصحافة الوطنية للدفاع عن اللغة العربية التي استهدفت من طرف سياسة المحتل ، وهذا باعتبارها مكون أساسي لهوية الشعب الجزائري الوطنية، فالقضاء عليها يساعد على تجسيد مشروع المسخ الإستعماري الحضاري للجزائر ودمجها في الكيان الفرنسي، لذلك لم تتردد الإدارة الاستعمارية في جعل العربية لغة أجنبية ميتة، و اعتبار الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد، و حاربت كل العوامل التي تساعد على تطوير وانتشار اللغة العربية في عقر دارها كالتعليم العربي الحر، والصحافة الوطنية المكتوبة باللغة العربية والكتاتيب القرآنية وغيرها... فقامت الصحافة الوطنية بالتصدي لهذا المخطط الاستدماري ، من خلال مقالاتها التي غلب عليها أسلوب الخطابة بهدف الهاب الحماس الوطني في نفسية الشعب الوطني ودفعه للذود عن لغته ومن ثمة مقاومة سياسة الفرنسية. و نذكر في هذا الصدد كتابات عبد الحميد بن باديس التي دافع من خلالها باستماتة عن اللغة العربية، نقتطف ما جاء في إحداها، قوله: «إنني أعاهدكم على أنني اقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، إنها لواجبات... و إنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم، و أطلب منكم شيئا واحدا وهو ان تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن...» (أنظر: الشهاب، م15، ج07، سنة 1939)

و في مقال آخر كتبه المناضل أحمد توفيق المدني تحت عنوان ((بين الموت والحياة)) في مجلة الشهاب سنة 1930، حذر فيه من المتربصين باللغة العربية، و داعيا في نفس الوقت إلى ضرورة الدفاع عنها والتمسك بها حفاظا على الذات الجزائرية(الشهاب ،م6، ج6، سنة 1930)

نفس الموقف المشرف أبدته الصحافة اليقظانية من اللغة العربية، بحيث دعت إلى التمسك بها والدفاع عنها، وتطويرها، والإقبال على تعلمها باعتبارها لغة القرآن، ومقوم أساسي للشخصية الجزائرية(وادي ميزاب ،العدد110، سنة1928).

وفي صدد دفاعها عن المقومات الأساسية للشخصية الوطنية الجزائرية،، ناضلت الصحافة الوطنية في سبيل نصره الدين الإسلامي، حيث تصدت لحمولات التنصير، والإلحاد، وأفكار

الطرقية الضالة، وانتقدت الإدارة الإستعمارية على تدخلها في الشؤون الدينية الإسلامية للجزائريين، وطالبت بفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية على غرار ما فعلته مع الديانتين المسيحية واليهودية بموجب المرسوم الصادر بتاريخ 1907/09/27، وقد لقي هذا الموضوع اهتماما منقطع النظير لا سيما من طرف الصحافة اليقظانية، و شهاب ابن باديس، وبصائر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنار محمود بوزوز.

4-نشر قيم الوطنية والحرية:

عملت الصحافة الوطنية على تقوية الوعي الوطني لدى الشعب الجزائري، وغرس روح المقاومة الوطنية في نفسه عن طريق نشر قيم الوطنية في أوساطه مثل الإعتراز بالوطن، و الافتخار بالانتماء إليه، والتضحية في سبيله، والتأكيد على خصوصياته المتميزة عن وطن المحتل جغرافيا ودينيا وحضاريا وتاريخيا، ودعوته للوحدة الوطنية لمجابهة مخططات العدو المستهدفة لوحدة الشعب الجزائري الوطنية واهتمت كذلك بنشر قيم الحرية من خلال دعوتها للتحرر.

و نذكر في هذا الصدد على على سبيل المثال -لا الحصر- ما كتبه الشيخ أبو اليقظان قائلا: «... إن الحرية جزء برأسه لا يتجزأ فإما أن يكون كله أو يذهب كله، و هي بطبيعتها تؤخذ و لا تعطى شأن الشيء الغالي الثمين، هذا ما دلنا عليه تاريخ نهضات الأمم و لعله يأتينا زمان يخرم هذه القاعدة، فتنال فيه الحرية بالتسول و الاستجداء و الإغراء في النوم و الجري وراء الملذات و الشهوات فان الدهر أبو العجائب...» (وادي ميزاب، العدد 26 سنة 1927)

وبدوره الشيخ عبد الحميد بن باديس دافع عن الاستقلال، بقوله: «... إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا، و قد استقلت أمم كانت دوننا في القوة و العلم و المنعة و الحضارة، و لسنا من الذين يدعون الغيب مع الله و يقولون عن حالة الجزائر ستدوم إلى الأبد، فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ، فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ...» (الشهاب، م12، ج13، سنة 1936).

و جاء في افتتاحية جريدة البصائر سنة 1948: «... فالاستقلال من الضروريات الطبيعية الحيوية للأفراد و للشعوب و لهذا يعد حقا من الحقوق المقدسة التي يتفق العقلاء على اعتبارها، و التي يعد التاريخ الموت في سبيلها شرفا عظيما...» (العدد 20، سنة 1948).

كما شجبت الصحافة الوطنية الاستعمار الغربي بأشكاله المختلفة لاسيما في العالم الإسلامي و العربي، و نددت بالغزو الصهيوني لفلسطين، وساندت الحركات التحررية العربية، و قد عكست بذلك مدى وعيها لترابط نضال الشعب الجزائري مع كل شعوب الوطن العربي ضد الإستعمار بكل وجوهه.

وأمام هذا الدور النضالي الوطني التحرري الذي أصبحت تؤديه هذه الصحافة لم تتردد الإدارة الاستعمارية في كتم أنفاسها والنزج بأصحابها وكتابها في السجون، لكن ذلك لم ينل من عزيمة هذه الصحافة في مواصلة نضالها الوطني، مساهمة في تأجيح الوعي الوطني لدى الشعب الجزائري و تحضيره سيكولوجيا لثورة أول نوفمبر 1954..